مجلة المختار للعلوم الإنسانية 27 (1): 465-484، 2014

Research Article

Open Access

دور النماذج الثقافية الاستعمارية في إعاقة التنمية

الشيخ أحمد الجيلاني[1]*

قسم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم (القبة)، جامعة عمر المختار

Doi: https://doi.org/10.54172/n5pmw050

المستخلص: يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على دور "آلية النماذج الثقافية" التي أسستها القوى الاستعمارية كصفة أو هوية للعالم الثالث. لقد أصبحت متأصلة لدرجة أنها تنسب سماتها المتخلفة المتصورة إلى نفسها، وتدافع عنها وتعتبرها صفات جوهرية. علاوة على ذلك، فهي تنظر إلى الآخرين على أنهم مرفوضون بطبيعتهم وتحرمهم من الحق في هوية متميزة. وقد حالت هذه العوامل دون اعتماد مرجعية فلسفية وتربوية مستمدة من تراث وتاريخ وقضايا الحاضر للأمم التي وقعت ضحية للاستعمار أو منحت نفسها نصيبا من الاستقلال. يرى الباحث أن المستعمر مُدان بسبب قضايا أعمق بكثير مما يمكن تقييمه ماديًا. لقد أنتج الإرث الاستعماري إعاقات ثقافية ونفسية لا تزال تؤثر على أمم بأكملها، وتقوض جهودها في تنظيم العمل التنموي والإبداعي، وفهم هويتها، وتحديد معايير العلاقات المتبادلة، والتغلب على المرجعيات الاستعمارية التي قسمتها واستهزأت بسيادتها.

الكلمات المفتاحية: المستعمر، الثقافة، التنمية، الهوية

The Role of Colonial Cultural Models in Hindering Development

Sheikh Ahmed Al-Jilani
Department of Sociology, College of Arts and Sciences (Al-Qubba), Omar Al-Mukhtar University

Abstract: This research aims to shed light on the role of the "Cultural Models Mechanism," established by colonial powers as a characteristic or identity for the Third World. It has become so ingrained that it attributes its perceived backward traits to itself, defending and considering them as intrinsic qualities. Moreover, it views others as inherently rejected and denies them the right to a distinct identity. These factors hindered the adoption of a philosophical and educational reference derived from the heritage, history, and present issues of nations that fell victim to colonization or granted themselves a share of independence. The researcher argues that the colonizer is condemned for much deeper issues than can be simply evaluated materially. The colonial legacy has produced cultural and psychological disabilities that continue to influence entire nations, undermining their efforts in organizing developmental and creative actions, understanding their identity, establishing criteria for interrelations, and overcoming the colonial references that divided them, mocking their sovereignty.

Keywords: Component; Colonizer, culture, development, identity

The Author(s) 2023. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/) , which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium ,provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مقدمة

تتطلب مصداقية الالتزام بمعطى "أن أسوأ شيء أن يناضل المرء عن قضية عادلة بعقل مغفل" مزيدا من مسئولية تذكير أنفسنا أنه من السهل وأحيانا من المريح أن يجلس المرء في مقعده ويأخذ في كيل الاتهامات للآخر "ككبش فداء" ليشبع نهم الحاجة إلى تبرئة ذاته دون مبرر، و بالمجاراة لذلك، فإن ما نقوم به مجرد فصل أو عدم خلط بين الأشياء؛ تجنبا للوقوع في التفسير التآمري للتاريخ، لكن دون الارتهان أيضا للتآمر على فكرة التآمر, اللتين تستدعيهما آليات التفكير الكسولة, والبحث عن شماعة نلقي عليها تخلفنا. و لكن و من باب أولى تجنب الإذعان لآليتي التوحد مع المعتدي أو القوي . وآلية الوصم للأضعف وإلقاء الغسيل في سلته. وتجنبا للوقوع في أي من ذينك الهوّتين السحيقتين، لابد من استحضار المقولة الشهيرة للمفكر الجزائري مالك بن نبي حول "قابليتنا للاستعمار" وتعامل بعضنا معه، بسوء نية أو بعامل تدني الوعي بالأسئلة المتعددة لتحقيق الهوية، كإطار مرجعي تاريخي...

ينطلق هذا التناول من أنه إذا كان العنصر البشري يمثل أكثر من (60%) من عناصر التنمية الشاملة، متقدما على رأس المال المالي و الإدارة . كما يرد في تقارير التنمية الدورية . فمن المسلم به أن أي إعاقة لفاعلية ذلك العنصر، تعتبر أكثر خطورة على التنمية من أي عامل آخر، وبنفس النسبة أو التناسب بين عناصرها, وليس خافيا أن إنسان الأمم المستعمرة تعرض لعملية هدر مبرمجة على يد المستعمرين الغزاة, الذين أصابهم فيروس العنف في بنية عصبيتهم إلى حد أغلق إنسانيتهم عن إمكانية الاعتراف بإنسانية الآخر, بل واعتبار التضحية به دلالة للعمل النبيل, و نوع من القضاء على الشر، حيث حرر الغرب سلوكه من إدانته بازدواجية المعايير, بوضع الأمم الأخرى خارج القانون, كنوع من العقل التصنيفي بين البشر وأشباه البشر, ليطلق غرائزه الهوجاء باتجاههم، لإخضاعهم لمشيئته، و تعريض بُناهم الثقافية للهدر، رغم خطورة ما تحدثه تلك العملية من انشطار للإنسان، بين ما هو عليه, وما يعتقد أنه يجب أن يكون عليه, و التي قد تظهر في شكل "اضطراب" يتنكر فيه لمظاهر أساسية من شخصيته أو يتخلى عنها, في صورة تشبه الثقوب في كيانه, التي يحاول سدها من خلال تماهيات نابعة من معايير مفروضة من الخارج, واستخدامها كقناع لشعوره بخوائه وتدهور وجوده, وذعره من حالة اللاكيان(حجازي,2005 ,298).

و بناء على خطورة إعاقة العنصر البشري في عملية التنمية، يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على دور "آلية النماذج الثقافية" التي رسخها المستعمر كخاصية أو كهوية للعالم الثالث في ذلك، إلى حد أصبح ينسب خصائصها المتخلفة إلى نفسه ويدافع عنها ككيانه، ويعتبر غيرها حكرا على

الغريب . المرفوض لاشعوريا . ولا تحق لغيره, مثل تكوين دولة الأمة, والأهلية في إعمال العقل لتفسير الظواهر المختلفة... الشيء الذي أعاق اعتماد مرجعية فلسفية تربوية مستخلصة من تراث و تاريخ و حاضر قضايا الأمم التي كانت ضحايا للاستعمار(انظر ,فخرو,2008 ,27) أو منح نفسها قسطا من الاستقلال و الثقة في الهامش المنطقي لثقافتها, لتخفيف التبعية للآخر "حتى في التدرب على الهرولة وراء كرة القدم".

تعود دواعي التركيز على النموذج الثقافي بالذات، إلى ما انتبه إليه الأقدمون من أهميته، مثل الحكيم (بوذا) من أنه ما دام "العقل هو كل شيء ... فإنك ستصبح على ما تفكر فيه" و ما توصل إليه الانثروبولوجيون المعاصرون، (الفريد كروبر، و كلايد كلاكهون) من أن الثقافة بالمعنى الانثروبولوجي، بمثابة متغير لتفسير الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تفسيرا شاملا أو جزئيا(انظر، كوبر، 2008)، باعتبار الثقافة "هي أسلوب الحياة الإنسانية" وما البشر سوى كائنات مرمزة فيها، نظرا لما تشكله لهم من مجال نفسي أو بيئة نفسية، التي من خلالها يدرك الشخص نسق قيمه و إدراكاته وتوقعاته . فبحسب نظرية "المجال" لـ (كيرت ليفن)- فإن سلوك الشخص في سعيه لتحقيق أهدافه، يتوقف على البيئة النفسية "الثقافة" من خلال ما تحدده من نسق القيم والتوقعات الاجتماعية المتضمنة في اللغة، بل و اعتبر البنيويون أن كل النتاجات الإنسانية أشكالا لغوية، فأي حديث نستخدم فيه مصطلحات ذات معاني عامة مسبقة، ثم نخلع عليها معاني معينة ترتبط بالسياق، وهذه المعاني تشكل مجالا من الواقع الاجتماعي، أي أن البنى الكامنة للفكرة تحيلنا إلى دمى، فالكلام كإشارات ذات معنى، يشير إلى وجود آليات تحدد التفكير- حسب(شتراوس)- و من ثم، فإن الكشف عما هو ثابت وسط المتغيرات السطحية في مجال المعرفة، يستلزم الكشف عن جذور الثقافة البشرية في "الأسطورة" كبنية أساسية لاشعورية للعقل الإنساني، أو بمعنى آخر, فإن اللغة . كحاوية للثقافة . مزودة بموجهات أولية أو منهجية للذهن . حسب الانثروبولوجي النفسي (كروبر) . أي أنها غير محايدة, ومن ثم فإن "من يصنع الرموز أو النماذج الثقافية ويتمثل حيازتها أولا, يسيطر" أكثر من أي قوة أخرى على المناحي المختلفة للآخرين، بما في ذلك الفاعلية التنموية...

يحيلنا ترابط الأشياء عندئذ، إلى ضرورة إلقاء نظرة على الاعتبارات التالية للتنمية . على سبيل المثال لا الحصر . لتوضيح خطورة "إعاقة العمق الانثروبولوجي أو الثقافي لها" باعتبارها عملية لا تتجزأ من النسق الثقافي الاجتماعي الشامل، فحين اعتبارها "تغيير قوي وكبير يحرك الأمة نحو ذلك النوع من الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية التي تقررها وتحددها لنفسها" فسيظهر أهمية حرية

الابتكار في تحديد النظم التنموية للأمم، واعتباره شرطا أساسيا لتطورها وتميزها, وبمعنى آخر, أنها فعل إنساني جماعي إبداعي, غير قابل للنقل والتكرار, حسب التجارب التنموية الناجحة(عبد المعطي, 1990, 387). و من ثم، فعلى كل أمة أن تبتكر ضمن النطاق المنطقي لثقافتها سياقها التنموي، طبقا لهويتها المتفردة.

كما أن اعتبارها "ذلك التغيير نحو الأنماط المجتمعية التي تسمح للمجتمع، ليس فقط بتحقيق القيم الإنسانية الأفضل، بل وأيضا بزيادة قدرته على التحكم والسيطرة على بيئته ومكانته السياسية وبزيادة مدى سيطرة أفراده وتحكمهم في توجيه أمور شؤونهم" يعني أن توافر "القدرة والإرادة والحرية في اتخاذ القرار التنموي المناسب" يمثل العنصر الأكثر عمقا لمفهوم التنمية. ما يعنى أنه إذا كان الاعتبار السابق قد أظهر أهمية الابتكار والتفرد في عملية التنمية؛ فإن هذا الأخير يتركز حول السيطرة على المصير وتجاوز مشكلة اضطرابات الديمومة الوجودية، كشرط أساسي للتنمية، سواء كان ذلك ناتجا عن الماضي أو الحاضر أو المستقبل، نظرا للعلاقة الجدلية لأبعاد الزمن، التي تظهر أنه غير متسلسل، أو ذاهب ببساطة من الماضي باتجاه المستقبل، بقدر ما أن الحاضر يُلوَّن التجربة التاريخية ويصبغ استشفافا معينا للمستقبل، كما يؤثر استشراف المستقبل على نوع التجربة الحاضرة وكذلك التجربة الماضية وإدراكها، فالكل يؤثر في أبعاد الديمومة الأخرى، وهذا يحيلنا إلى التجربة الاستعمارية وما أحدثته من تشوهات وانقطاعات أعاقت ترابط أو تشكل التجربة الوجودية التاريخية للأمم وتكامل اختراعاتها, التي كانت ستؤدي لمزيد من الاختراعات وتطورات الأسس الثقافية للتنمية, التي تتيح مزيدا من معدلات براءات الاختراع, وإمكانية إثراء التوليف بينها(رمزي,وأبو طاحونة,1992, 50) بدلا من الانطلاق الأهوج في شكل دويلات رخوة في المضمار, للمنافسة في المغامرة الحضارية والتنموية, وهم مكبلون بمعوقات التبعية الثقافية "اللغوية" و التجزئة السياسية و النفسية وغيرها.

كما أن اعتبارها "انبثاق نمو الإمكانات الكامنة، ثم وجود مؤسسات تساعد على نمو هذه الإمكانيات" (انظر,رمزي وأبو طاحونة،1992), يؤكد أيضا على مبدأ الانبثاق والابتكار الذي يتطلب الحرية الشخصية والاجتماعية، وعدم تعريض البناء الثقافي . الاجتماعي للتفكك، أو عدم محاولة نقل النظم الاجتماعية الغريبة التي لا تحقق أهداف هذا البناء, و التي غالبا ما تتناقض مع المكونات الاجتماعية والثقافية للمجتمعات النامية(غامري،1989, 186) نظرا لأن أي تغيير يحدث في أي مجتمع يصاحبه تعديل في نسق العلاقات بتناسب معين، كما أن محاولة تقييم أي ثقافة في

ضوء المعايير الغربية يؤدي إلى الإحلال في سجيتها الإدراكية, ومن ثم تولد المشاكل في عملية التكيف الايكولوجي مع غيرها(نفسه،179).

أما الآليات التي اعتمدها المستعمر في سبيل ترسيخ التبعية لنماذجه المعيقة للتنمية في العالم الثالث, فمن أخطرها ما يستعصي على فهم الكثيرين، مثل "منهج التكريس" القائم على مبدأ زحزحة اليقينيات، أي على التشكيك في المقولات اليقينية، باستخدام عملية الطرق، التي تمهد للقبول بالطرح، و التي تتيح بدورها الفرصة لملء الفراغ، و من ثم سهولة ترميز هوية جديدة، أو فرضها، بحيث يصبح صاحبها شيئا آخر يظن أنه هو، من خلال إفقاده هويته الثقافية "إطاره المرجعي" فيصير يمارس ما ينافيها تماما ويعتقد أنه لا يفعل ذلك، ويعد هذا أقسى أنواع العنف، إلى حد أن شبهه البعض بما يحدث مع الضحية في حالات الاغتصاب، حيث يغرس المعتدي النشوة البدنية في جسدها كرها, لتتبدل هويتها في نظر نفسها بتدنيسها وانتهاك خصوصيتها المقدسة(فيرونيك,2002 ,185) أو تزييف وعيها بذاتها سواء كانت شخصا أو جماعة. حيث يعيق أو يشل فاعلية هويتها عن إمكانية مواجهة الفضاءات النسبية في بيئتها, نظرا لتعرضها للتفكك, أو تعريض جزء من تاريخها للإعتام, ومن ثم إلحاق العجز بها عن إمكانية إحداث التنمية, من خلال التباين البنائي الوظيفي للنظم الاجتماعية وتطويرها نحو مستويات أعلى وأكثر تخصصا وقدرة على الأداء, وظهور ميكانيزمات وظيفية تحقق التكامل أو التنسيق بين الوحدات الاجتماعية المتباينة نحو التحديث, ابتداء من نطاق الأفكار والقيم، مرورا بتغيير قواعد المعايير الثقافية السلوكية الموجهة للدور- حسب رأي (بارسونز) . الذي انطلق فيه من مفهوم الفعل الاجتماعي (الفيبري) الذي اعتبره سلوك ينطوي على معنى ذاتي, ليؤكد على أنه كذلك طالما أن التفاعل تحركه أهداف لتحقيق بعض الغايات في موقف أو بيئة معينة, بما في ذلك "فعل التنمية" ولذلك يهتم علم اجتماع التنمية . حسب رأيه . بأنساق الفعل بمعناها الواسع، كأنساق شخصيات الأفراد . الأنساق الاجتماعية الناشئة عن التفاعل الاجتماعي . الأنساق الثقافية وما يرتبط بها من معان ودلالات . والأنساق العضوية وما يرتبط بها من اشباعات فسيولوجية.

و ترجع أهمية النماذج الثقافية لدى أنصار الاتجاه النسقي . الوظيفي هذا, إلى أن النسق يعمل دائما من أجل المحافظة على نمطه وصيانة هويته؛ ما يعني أن نموذج الفعل أو السلوك ذو المعنى الذاتي "المركب المعاني الثقافية الرمزية" ببعده النفسي الموجه نحو الهدف, هو القادر على استيعاب مركب المفاهيم الكامنة خلف الفعل الاجتماعي, الذي يمكن استبطانه واستنتاج دوافعه من خلال المشاركة الوجدانية. على عكس النموذج السلوكي, الذي لا يصلح إلا لتفسير الاستجابات

الفسيولوجية "المثير الخارجي" في البيئة, ولا يمكن تعميمه إلا على السلوكيات غير الإنسانة. ولذلك، قبل (بارسونز) . أبرز أنصار الاتجاه النسقي . المنظور التطوري (الفيبري) على المستوى الحضاري فقط, باعتباره يدل على الوسائل, "جهاز الحياة" ورفضه على المستوى الثقافي, أي الدلالة على الغايات "التعبير عن الحياة" وذلك على اعتبار أن الثقافة مجال مفتوح للعواطف وطابعها نسبي ذاتي واضح, يتعذر تقييمها موضوعيا, أما منتجات الحضارة فيمكن إخضاعها لمعيار الكفاءة؛ مما يسهل مقارنة منتجات الحضارات, ولهذا كلما تميز الإنسان أو المجتمع بالمعقولية والرشد, كلما كان أقدر على اختيار المنتجات الحضارية الأكثر كفاءة. و شاطره العلامة (مكيفر) الرأي، من حيث أن المنتجات الحضارية يمكن استعارتها دون أي تغيير أو فقدان للهوية, لكن ذلك لا ينطبق على منتجات الثقافة الرمزية "الدين . الفن . اللغة . نظم السياسة و الترويح..."(غيث و محمد, 1986, 174, 177).

تؤشر تلك المطارحات إلى أهمية النماذج الثقافية "عموما" في عملية التنمية وعدم حياديتها من ناحية, ما يسوغ من ناحية أخرى ضرورة التركيز على تلك التي رسخها المستعمر "تحديدا" لإعاقة فعل التنمية في العالم الثالث' وذلك لاعتبارات تتعلق بأنساق هذا الفعل أو مكوناته الثقافية الاجتماعية الشخصية و العضوية, و صلتها بالمفهوم الشامل للتنمية الثقافية الاجتماعية السياسية الاقتصادية التقنية... و على هذا الأساس يمكن اعتبار أن من أخطر ما رسخه الاستعمار لإعاقة عملية التنمية، يتمثل في النماذج التالية: اختراق الهوية . السخرة الدولاتية . ممارسة السلطة بالتعالي و العجرفة و التحكم في المحلي . تدمير الأطر المرجعية . حرمان الأمم من تطوير تجاربها. كأطر مرجعية نموذجية موجهة للفعل في العالم الثالث، و لذلك، يسعى هذا العمل إلى تحقيق فك بعض الالتباسات إزاء هذه النماذج على النحو التالي:

أولا: نموذج اختراق الهوية:

بدأت محاولات المستعمر في السيطرة على الأمم الأخرى بالتلاعب الثقافي، عبر إعادة تحديد "مفهوم الهوية" على أسس اصطناعية أو غير طبيعية, وأكثر ما ارتبط ذلك التلاعب بالاستعمار الفرنسي دون غيره, الذي ارتبطت به وصمة الاستعمار الثقافي, أو الاستعمار القائم على الأطماع الثقافية, حيث تبلورت نظرية الفرنسيين في القرن التاسع عشر حول مفهوم الأمة مصبوغة بالطابع الاستعماري, أو الطابع الذي يراعي المصالح الاستعمارية للأمة الفرنسية فقط, التي لم تكن تعاني آنذاك من التجزئة. و قد اعتبر المفكر الفرنسي الاستعماري(رينان) أبا لهذه النظرية, من خلال نظرته القائمة على"أن الأساس في تكوين الأمم هو الإدارة, أي الدولة" ما ينفي "صفة الأمة" عن كل

الشعوب المستعمرة, لأنها لم تنشئ دولا مستقلة على غرار فرنسا(سعدي,1998 ,114)، ليترك بذلك أثرين, الأول اعتبار فرنسا أنموذج، رغم "كل جرائمها" والتي على رأسها استعمارها للأمم الأخرى، والثاني تزييف الوعي الذاتي لدى الأمم الأخرى, وحرمانها من إدراك نفسها مصنفة تحت اسمها بكل صفاته الثقافية أو الاثنية، الفيزيقية، التاريخية، الإنتاجية، و النفسية...؛ لما يعطيه الاسم من قيمة للمكان والمجتمع الذي يحمله, و ما يترتب على ذلك من توجيهه نحو أفعال معينة تتسق مع الاسم الذي يفرد تصنيفها, نظرا لأن الاسم هو المعطى الأول للهوية المحصلة لكل الانتماءات الاجتماعية والشخصية, من خلال ما يحمله من معاني اجتماعية وسياسية أو شخصية فريدة, متى ما كان حائزا على احترام حامله والآخرين, وكلما عجز الاسم عن أن يعكس ذلك, فإنه يتسبب في إشكالات ويعطل قدرات التواصل, سواء مع الخبرات الذاتية أو مع الآخرين(الجيلاني,2008, 377) و بكل ما يترتب على ذلك من ظهور"أميمات" اصطناعية متنافية أو متعادمة، مثل، الأمة الموريتانية . الأمة المغربية . الأمة التونسية أو البحرينية أو الرواندية... كل منها تسعى إلى احتكار رموز وتاريخ "الأمة الأم" لملء هويتها الخاصة التي لم تنتج سوى مزيد من التجزؤ الأولي "القبلي أو الطائفي..." السابق على وجودها، و الناتج عن عجز هذه "الأميمات" القزمية عن تشكيل بيئة أو موضوع بديل لإشباع الحاجة إلى الانتماء إلى "الأمة الأم" كما في الحالة العربية.

وعلى العكس من الكتاب الفرنسيين وبعض الإفريقيين أو العرب المتأثرين بالفاعلية الفرنسية في تزييف مفهوم الأمة, كان للمنظرين الوحدويين الأوربيين المنتمين إلى أمم أوروبية أخرى، كانت ما زالت تعاني من التجزئة ولم تكن لها ممارسات استعمارية, تعريفات مختلفة, مثل تعريف المفكر الايطالي (ماتسيني) للأمة عام 1851أثناء تجزئة ايطاليا، حين اعتبرها "مجتمع طبيعي من البشر يرتبط بعضها ببعض بوحدة الأرض والعادات واللغة من جراء الاشتراك في العادات والشعور الاجتماعي". وكذلك فعل الألماني(فختة) في تعريفه للأمة الألمانية عام1808 أثناء تجزئتها إلى أكثر من 200 دويلة حين اعتبر أنها "تتكون من جميع الذين يتكلمون الألمانية"(سعدي,1998 ,117 . 118).

ما يعني أن التلاعب الثقافي بمفاهيم الهوية نجح في تشكيل اختراق مستويات مختلفة لكيان المجتمعات التي تعرضت للاستعمار، ترتب عليه اضطراب حصرها بين خيارات التشكل الشوفيني الغارق في المحلية القبلية أو الطائفية أو الجهوية، أو التحلل القومي العدمي الهارب من إدراج سؤال الهوية ضمن مربع المفكر فيه، وذلك خلال فئتين، تضم إحداهما، أولئك الذين يسعون إلى الاندماج في هوية بديلة، تضمن لهم الأمان الموهوم، ويظهرون سعيهم للاندماج من خلال التماهي مع

طقوس و أسماء و مناسبات الغالب... . بحسب وصف العلامة ابن خلدون . وتضم الأخرى، أولئك الذين يناصرون الثقافة الاثنية السرية، أو الهاجعة تحت سطوة النظم الشمولية، التي تشكل المجال الأنسب للإصابة (بشيزوفرينيا) الهوية أو انفصامها، بحيث يصبح أشخاصها مختلفون في ليلهم الخاص عن ما هم عليه في نهار الجميع(منصور، 2014) الذي يعاني من تضخم الهوية، الذي تظهر أعراضه بدوره في تورم النشيد الوطني، في شكل حشوه بمزاعم الفاعلية المزيفة، بما يتناسب مع الشعور بالعجز عن استحقاقات احتكاراتها المفترضة.

الشيء الذي يظهر أن المفاهيم أداة فعالة في حمل الآخرين على التفكير بما يريد لهم المتحكمون فيها التفكير به، و يتم ذلك باستخدام الدلالات الملتبسة، بحيث تبدو و كأنها تعبر عن جزء من الحقيقة، بما يسمح بتمرير ما هو مضاف إليها، سياسيا كان أو ثقافيا .. كأن يكون مبتدأ الجملة في خدمة الخبر المضاف إليه . حسب تعبير الكاتب(منصور،2014) . الذي يورد مفهوم "النكبة" كأشهر الأمثلة المضللة عربيا، بعد احتلال فلسطين عام 1948م، لربط دلالته بعوامل الطبيعة، كالبراكين و الزلازل، في صياغة تغيب الفاعل، و تصيّر الفعل مبنيا للمجهول، أو منسوبا للطبيعة في أحسن الأحوال، لصرف الانتباه عن اعتباره من إفرازات التاريخ البشري، و من ثم، يصعب إمكانية ضبط الآثم فيه مهما كان متلبسا بالجرم المشهود، و ما زالت فاعلية النمذجة المفاهيمية على أشدها، و ربما يكون آخر فصولها كتاب "الحرب مع غزة" الذي أصدرته إسرائيل أثناء عدوانها في منتصف عام 2014م على قطاع غزة، بحيث يوحي بالتكافؤ و الندية في الجيوش و العتاد ... بين الضحية و المعتدي.

ثانيا: نموذج السخرة الدولاتية:

من المعروف أن المستعمرين كانوا مصاصي دماء بكل ما في الكلمة من معنى, واستخدموا في ذلك أظافرهم و أنيابهم, وكل الوسائل التي أتيحت لهم في نهب الثروات الطبيعية والقوى العاملة البشرية, واستخدام ذلك في بناء وتعمير أممهم, وبعد أن زادت أطماعهم مع نمو خبراتهم في (استخراب) الأمم الأخرى, انتقلوا إلى مرحلة ممارسة السخرة الدولاتية, فيما يصوره المفكر الكيني المزروعي بأنه "أقسى أضحوكة فعلها الغرب على حساب افريقيا, وهي إنشاء سجنين متناقضين أحدهما قطري بشكل واسع وصلد, والآخر يمتد عبر القوميات بشكل لا يقاوم, الأول هو سجن الدولة ذات السيادة, وهو قلعة للسيادة السياسية والعسكرية, والثاني هو سجن الرأسمالية, وهو يمتد عبر القوميات بشكل إلزامي، ويهزأ باستمرار من مبدأ السيادة القطرية ذاته"(سلامة وآخرون,1989 , 52) وتتجلى هذه السخرة الدولاتية في مجالات كثيرة من أبرزها:

1- فرض التجزئة من خلال مفهوم أو نموذج الدولة الوطنية الغريب على المنطقة, والقائم أصلا على توليفة من (الهيراركية الكنسية) والإقطاعية الزراعية الأوروبية, ليحل محل المفاهيم الجامعة للأمم الأخرى, سواء كانت قائمة على أسس دينية مثل الخلافة الإسلامية, أو أسس إثنية أو قومية أخرى.

لقد بدأ المستعمر ذلك بتزييف الوعي بمفهوم الأمة . كما سبقت الإشارة . وباستخدام منهجية الطرح وملء الفراغ, فأخذ بفرض مفاهيم تنظيمية غريبة على المجتمعات, بحيث تتأسس هويتها أو تتشكل بطريقة "غيبوبوية" مشوشة أو ملتبسة, أو شبه مدنسة, يلاحقها الشعور بالفرض القسري من الخارج, وهكذا, فقدت نماذج السلطة لدى هذه الدول شرعيتها والثقة فيها والإجماع حولها, وصيّرت خطابات الوطنية . القومية معرة وتهمة, تطاردها أجهزة الدولة المسخرة لتكريس مبدأ محنة أن "الدولة / ضد الأمة".

2. الدولة الوطنية لم تشكل مشاريع منافية للاستعمار، فمن المفارقات التي تستعصي على الفهم والاستيعاب, أن بناء الوعي الوطني بالدولة, لم يتشكل على أسس موالية أو مواتية لمبررات ظهورها, لذلك ظلت عاجزة أو متكاسلة أو "مسخِّرة" عن أن تنتج وعيا يبرر النضال لإخراج الاستعمار, ومن باب أولى تجريم فعلته ومحاولة معاقبته, وبدلا من القيام بذلك اعتبرت النضال من أجله نوعا من العبثية, وقفز البعض إلى ما يدعو للعجب, حيث أرّخ لبداية التحديث في مصر- مثلا- ببداية الاستعمار أو الحملة الفرنسية(أنظر,الجنابي,1998) وهكذا, تكرست الاتجاهات غير المواتية للدولة الوطنية, بما صاحبها من مظاهر العداء الرمزي لها, والمتمثل في استباحة حرماتها وممتلكاتها, بل واعتبار عدم احترام قوانينها في حيازة سيادتها أو إشارات المرور وغيرها, دربا من البطولات التي تجلب العزة والجاه؛ لأنها لا تنال الوعي الجمعي بها "المشاعر الأولية المشتركة بين مواطنيها بها" على عكس الحيازات الجماعية القبلية أو غيرها من التنظيمات المعترف بها جمعيا، وذلك لأن الدولة بمفهومها المفروض هذا, لم تكن استجابة للمتطلبات الخاصة بالبنية السياسية لمجتمعها في تلك المرحلة من تطوره, إما لأنه ما زال يمر بمرحلة ما قبل الدولة, أو أنه يتطلع إلى دولة منسجمة مع وعيه القومي و موجهاته الثقافية، وتجربته التنظيمية وتطلعاته الأيديولوجية غير الموالية قطعا لمن اغتصبوا كرامته, مما يظهر درجة تنافي أو تنافر السياق الذي ظهرت فيه الدولة "السخرة" مع فكرتها التي يفترض أنها "محكومة بالتطور النفسي والاجتماعي للجماعات الوطنية التي تولد شكلا غير معروف للسلطة, بغرض فصلها عن الذين يمارسونها, لكي تتجسد في مؤسسة للسيطرة على مصيرها"(بوردو,2002 ,14) أو أنها وجه آخر للاستعمار "مُسخّرة لخدمة مصالحه" ولا تحظى

بتطلع مواطنيها إليها في حل مشكلاتهم أو تحقيق وجودهم, وعاجزة عن توفير الشعور بالأمان لهم في كنفها اجتماعيا، نفسيا، اقتصاديا، عسكريا، وصحيا... و المعضلة أن هذا التخليق المشوه المفروض من المستعمر بإيجاد الدولة بمظاهرها الحسية, كان سابقا على تجسيد المعتقدات التي تدعم تأسيسها بصلابة كافية لانفصالها عن التمثلات التي أودت إلى ولادتها, أي شروط وجودها, (انظر, بوردو), أي أن النتيجة سبقت المتسبب "المولود قبل المخاض" و بهذا نجح المستعمر في تكوين حواجز نفسية بين المجموعات القبلية الرحل والمستقرين في الأمة العربية مثلا, وأحال وضعها إلى ما يشبه "آلية الشعور بالعار" بما يترتب على تلك الآلية من تجمد في وضع محاولة إخفائه وعدم انكشاف خيبته, و من ثم مزيد من تعميق الشعور بالعار والاختباء فيه, عند مقارنة ما آل إليه من فشل في تحقيق الاعتراف به من جماهيره, أو فشل في تحقيق رفاهية أو حماية لهم, مع "دولة القبائل" الأخرى المجاورة, مما يحجب عنه إمكانية الخروج من مأزقه النفسي...

3- الدولة الوطنية لم تقم في كثير من البلدان على تاريخ الأحداث التي أسست لها "المقاومة"، فتأمل بسيط لمسلكيات كثير من الدول الوطنية التي كانت خاضعة للاستعمار, يكشف أنها تؤسس لتاريخ العمالة والاتصال بالأجنبي وأجندته في المنطقة, أكثر مما تؤسس للأحداث الوطنية ضد الاستعمار ورموزها, ففي موريتانيا . مثلا . مازال المجندون السابقون عند المستعمر, الذين كانوا مكلفين بقمع أي مظهر للتمرد عليه في سبيل الاستقلال ينالون التمجيد الرسمي, ويخصص لهم يوما وطنيا باعتبارهم مجاهدون أوائل, إلى جانب مخصصات مالية وامتيازات في فرص العمل والترقية والجاه... من الدولة الوطنية, التي كانوا يكرسون حياتهم لمنع تحقق قيامها، وكذلك حال جامعي الضرائب و الجواسيس "شيوخ القبائل" في عهد الاستعمار, والتي كان يفترض بهذه الدولة معاقبتهم والتشهير بهم, لكي تبدو منافية للاستعمار و منسجمة مع نفسها كدولة, تنسب إلى نفسها صفة الوطنية, التي من شروط تحققها الأولى، مناهضة الاستعمار و عملائه، والانحياز لسكان المنطقة, لتكتسب شرعية وجودها من خلال انتمائها إلى سكانها, وتجاوز الاتفاقات المخجلة التي أبرمتها مع المستعمر الفرنسي فور إعلان ما يسمى بالاستقلال و التي نصت عام 1961 على ما يلي:

أ- تعتبر اللغة الفرنسية لغة رسمية للبلدين.

ب-يحق للسفن الموريتانية أن تمارس الصيد والنقل التجاري بحرية في المياه الإقليمية الفرنسية, وللسفن الفرنسية نفس الحق في المياه الإقليمية الموريتانية, رغم أن موريتانيا لا تمتلك سوى سفن الصحراء "الجمال"!.

ج- تشرف فرنسا على تنظيم العدالة في موريتانيا(انظر, موريتانيا، كتاب مقرر التاريخ, السنة السادسة, ثانوي, د, ت, 120).

تجدر الإشارة إلى أن هذه الاتفاقية التي استمرت سنتين، وضعت لمجتمع لا يزيد عدد الحاصلين منه على شهادات جامعية أثنا ء ذلك على أصابع اليد الواحدة, والناطق الوحيد باللغة الفرنسية بينهم, هي الفرنسية زوجة المستلم الأول للسلطة فيه. ما يظهر بجلاء كيف أن "الدولة الوطنية" مجرد أداة مسخرة من قبل القائمين عليها لتبني وجهة نظر المستعمر و الدعاية لتكريس هيمنته "بالنيابة" على المجتمعات الخاضعة "لوهم وجودها" ما كرسها كحاضنة أساسية لحلقة الفشل بين الجمهور والحكام، حسب رأي خليل في كتابه "سوسيولوجيا الجمهور السياسي الديني في الشرق الأوسط" حيث أن الحكام العرب . مثلا . يتفقون في جامعة الدول العربية على الفشل، ثم يجتمعون في مؤتمر للعالم الإسلامي، ويعودون منه بفصل آخر للفشل، وحين يلجأون إلى الأمم المتحدة يكتشفون هناك مدى فشلهم على الصعيد الدولي، فيعزون فشلهم إلى فوضى الجمهور العربي، فيعاودون محاصرته و حبسه وكبته و إخراجه من عصره، كما خرجوا هم منه أيضا، و راحوا يكررون أمسهم في غدهم.

ثالثا: نموذج السلطة القائم على التعالي واحتقار المحلي والتحكم فيه:

عمل المستعمر من خلال آليات عديدة على توطين أسلوبه المتعالي في التعامل مع المواطنين المحليين، ما ترسخ كنموذج إرشادي جاهز لكل من يشغل مركزا في السلطة الوطنية, ليتم الاعتراف به ليس فقط من الخارج, بل حتى من الضحايا من أبناء البلد أنفسهم أيضا, ابتداء من الشرطي البسيط فصاعدا, فمن لم يمارس العجرفة والتعالي, ويستخدم أساليب المستعمر "كحامية عسكرية" ومفاهيمه وزيه وأخلاقه, يشكك الناس في مدى حيازته للسلطة, و استحقاقه لها، وخير مثال معاش على معاناة من يخالف ذلك, ما تعرضت له سلطة حركة حماس، التي يخطب رئيسها في صلاة الجمعة, ولا ينزّ فرط أثر التنعم من خدود وزرائها أو بذلاتهم... ولا يشعر المواطن البسيط بالغربة معهم, مما يذكر بنموذج الخلافة المتنافي تماما مع ما يريد الاستعمار ترسيخه من نموذج لـ "سلطة المعسكر التي تخيف الناس وتقهرهم" علما أن ممارسة المستعمرين في بلدانهم عكس هذا "فالطفل يشعر بأمان بحضور الشرطي" على عكس حالتنا, حيث يرتعش الكبار قبل الصغار من رؤية شارات سلطاتنا, إلى حد يزعم فيه مخيالنا الشعبي أن الطبيعة تكفهر في وجهها, الشيء الذي زاد من عزلة القائمين عليها و عمق عدم شعورهم بالاستحقاق و الأمان الاجتماعي, و كرس لديهم فكرة الانتهازية

والشراهة في حجم الفساد، بل و اعتبار ممارسة الفساد المحك أو المقياس الأساسي لدرجة السلطة و النفوذ نسبة وتناسبا!.

و يرجع البعض فساد الطبقة الحاكمة في المجتمعات الثالثية، إلى أن النموذج الارستقراطي الذي رسخه المستعمر كان مشوها عن ذلك الذي يميزه في أوروبا من محافظة وقيم الفروسية... حيث ارتبطت الارستقراطية لدى المستعمرات بقيم الحثالة لدى المستعمرين الغزاة, مثل العربدة والحسية والانتهازية والتعالي على ما هو محلي، والعجرفة وعدم الأصالة وسمسرة الأوطان والولاء للأجنبي بقيمه ولغته وزيه, واعتبار الاستغراق في النزعة الاستهلاكية و الانحطاط الأخلاقي, هو المؤشر الأساسي على الحداثة, فأنتج التماهي الشعبي معها (التنبلة) والاعتماد على الأجنبي لتحقيق قيمة الوجود, بدلا من مبدأ الإنجاز والعمل الجدي, و قضت على مبدأ "من جد وجد" وأحلت بدله "من تواطأ مع المستعمر و سايره وعمل لصالحه وجد"، رغم ما توصل إليه ابن خلدون منذ 6 قرون من أن "هزيمة الأمم إنما تبدأ من داخلها، عندما تشرع في تقليد عدوها" كأن ترضى بالتنميط الثقافي لها، سواء على مستوى المقولات الثقافية القيمية أو العقائدية أو الفنية أو الإيديولوجية أو الشعور بالهوية أو وسيلة نقل أنماط العلاقات و المعاني و الخبرات و الإبداع والابتكار و الإنتاج بين الأجيال، عبر حاضنة الثقافة المتمثل في "اللغة" حسب نظريات الثقافة(علي، 2001، 265).

وهكذا، من خلال نماذج القوة الناعمة، رسخ الاستعمار الاستزلام والاعتمادية وقيمة تمجيد العمالة, وزاد الخلط بين العبادة الغابرة واللا واعية للسلطة بالحاجة إلى الاعتقاد بأن المصير غير غامض,أو ليس متروكا للصدفة, أو ما تجود به الطبيعة, بدلا من الأصالة والاستقلال والابتكار من صميم عبقرية الثقافة, التي تضمن استمرار احتضان المجتمع للتنمية, وعدم اعتبارها عملية مفارقة لحضارته ولا مبرر لمناصبتها العداء.

كما تسبب الاستعمار من خلال ممارساته الخشنة في تشوهات أخلاقية ونفسية, سوغت للبعض استخدامها لحيازة السلطة أو الثروة دون وجه حق, كما عمقت أيضا (فوبيا) الاغتصاب أو السبي التي مازالت تكبل مشاركة المرأة بصورة سوية في العلم والعمل إلى جانب الرجل لدى البعض الآخر.

رابعا: نموذج تدمير الأطر المرجعية أو الخرائط الإدراكية:

لا جدال أن المستعمر الغربي . على اختلافه . مارس صنوفا شتى من تدمير مرجعيات الأمم التي أخضعها لسلطانه, مما تسبب في شل نظامها الحيوي الثقافي, الذي يشكل كل منه زاوية معرفية "تراكم خبرات" تطورت عبر الحقب الزمنية استجابة لمتطلبات التكيف مع المجال في الإنتاج والتوزيع والتنظيم الاجتماعي السياسي وفض النزاعات وتطوير الإنشاءات العمرانية... وكل الأنساق الداخلية

والخارجية لها, وحتى معايير تحقيق الوجود, رغم ما يترتب على الفشل المزمن في تحقيقها, من انتشار الإدمان واللامبالاة والاكتئاب و الميل الامتثالي أو اللافاعلية, وغير ذلك من مظاهر متلازمة التخلف الثقافي والاجتماعي والنفسي, كسلسلة مترابطة, وأشهر مثال لها ما حدث مع إفريقيا و هنود شمال أمريكا ... على يد المستعمر الفرنسي. فما فرضه المستعمر من احتلال وتسلط واستبداد وتحكم في مقدرات الشعوب المقهورة, أحالها إلى أكوام من المستنجدين والشحاذين لا قيمة لهم إلا بمشيئة الطرف المستبد وتكرما منه, ولم يترك للمقهور سوى الرضوخ والتبعية والشعور بالدونية, و بهكذا نموذج تترسخ نماذج التخلف الفاسد، كوسيلة أساسية للتكيف أو الحصول على المصالح المشروعة.

ومن أبرز أعراض عملية التدمير القهري لمرجعيات تحقيق الوجود، اجترار و استدماج عملية التبخيس الذاتي التي غرسها المستعمر في كيان المقهور, فأصبح يزدري خصائصه ويخجل منها ويهرب من مواجهتها ويكيل لها النعوت السيئة, بحيث تترسخ كاتجاه اجتماعي نمطي، يصعب تغييره أو تلوينه في الذاكرة الجماعية، ليستمر خارج المفكر فيه لدى هذه الجماعة.

مثل هذه الاتجاهات بدلالاتها الاجتماعية، تتشكل عندما تترابط الأفكار والمعتقدات والمشاعر الانفعالية في شكل نزعات سلوكية متسقة في ردود فعلها مع موضوع الاتجاه, وتصبح غير مرنة, أي نمطية التكرار, كلما زادت الشجاعة مع مرور الزمن على رد الفعل اتجاه الأحداث والجماعات بطريقة مقننة . حسب صبغة متحيزة . لصالح نموذج يحتكر بأدواته الثقافية "اللغوية" فرص الحياة "العمل" لكسب لقمة العيش فصاعدا.

و تظهر وظيفة هذه الاتجاهات التي رسخها المستعمر, من خلال تحديدها لسلوكنا, عبر تحديدها لإدراكنا للآخرين ولأنفسنا, ومن ثم تحديد و سرعة كفاءة تعلمنا, والجماعات التي نرتبط بها, والمهن التي نختارها, وفلسفة حياتنا, على قاعدة "أن تكوين الاتجاه الايجابي أو السلبي, يجعل صاحبه متحيزا لمن كانت صفاته مواتية لاتجاهه".

ومن أشهر الأمثلة على خطورة ترسيخ مثل هذه الاتجاهات، دراسة (مرجريت بيركس) حول تأثير الاتجاهات على الأحكام الاجتماعية, التي توصلت إلى أن نظرة الأكثرية سواء الديمغرافية أو الاجتماعية "بالإيثار", تؤثر في نظرة "الأقلية بالحرمان" لخصائصهم ففي المواقف الاجتماعية للأكثرية التي تنظر إلى اليهود أو السود أو النساء . مثلا . على أنهم ذو مكانة متدنية, اعتنق فيها هؤلاء تلك الاتجاهات المعادية لهم, وكذلك الحال بالنسبة للملونين و غيرهم من المهمشين.

ويرجع ذلك إلى أن أعضاء الأقلية أو الخاضعين لتقييم غيرهم، يتوحدون أثناء سعيهم لتحسين مكانتهم وتدعيم إحساسهم بالقيمة, مع الاتجاهات النمطية المتحيزة للجماعة المسيطرة, ويقومون باستدخالها بدون وعي, ويستعصى عليهم تغيير ذلك.

و خير مثال على الاستدماج الذاتي للنماذج النمطية، دراسة حول الاتجاهات النمطية بين الناطقين باللغتين الفرنسية والانجليزية في مدينة (مونتريال) حيث تبين أن تقييم القراء بالانجليزية, حاز على أفضلية في سمات الشخصية المخمنة, مثل طول القامة وحسن المنظر والذكاء والقابلية للثقة والطموح... ولم يحظ القراء بالفرنسية بأكثر من سمة واحدة مفضلة, هي الحس الفكاهي, لدى كلا الجماعتين؛ مما يعني أن الشباب الكنديين الناطقين بالفرنسية, ينظرون إلى جماعتهم الثقافية كمثير للشعور بالدونية, فهم يلاحظون أن كلتا الجماعتين تتقبلهم بأهمية أكثر عندما يتحدثون بالانجليزية(انظر, لامبرت, 1989). و هذا ما لا تخطئه الملاحظة في أرجاء المجتمعات الثالثية العربية و الإفريقية، ابتداء من التطفل اللغوي فصاعدا.

خامسا: نموذج حرمان الأمم من تطوير تجاربها:

مارس المستعمرون أيضا أساليب شتى في محاولة حرمان الأمم التي أخضعوها لسلطانهم من تطوير تجاربها في مجالات عديدة, ابتداء بالألعاب الرياضية المحلية إلى غاية اللغة القومية, التي استهدفت بالدرجة الأولى باعتبارها حاضنة المضامين الثقافية, ووسيلة التواصل بين الأجيال, وذلك لإعاقة استمرار نقل التجارب والخبرات الحياتية التي ابتكرتها عبقريتها أثناء محاولات التكيف الايكولوجي عبر التاريخ, سواء كانت دينية أم تنظيمية أم صحية أم ترويحية... و ذلك لفسح المجال أمام التأثير الاستعماري, وضمان التبعية المعرفية والإيديولوجية... ومن ثم الاقتصادية والسياسية و حتى الرياضية له. إذ يبدو أن المستعمرين الأوربيين عموما والفرنسيين خصوصا, قد انتبهوا إلى ما توصل إليه (فروم) من أن "أي خبرة لا تستطيع أن تتسرب إلى الشعور الاجتماعي, إلا إذا كان بالإمكان الانتباه إليها وربطها وتنظيمها في نسق من المفهومات مع المقولات الثقافية للمجتمع"(فروم, 1996 ، 116. 119) ومن ثم إلى أهمية البعد اللغوي في بسط السيطرة على عقول ووجدان المجتمعات, فقد أكد تقرير فرنسي عام 1848 "إن الجزائر لن تصبح فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا الفرنسية لغة قومية فيها... وعلينا السعي وراء جعل الفرنسية اللغة الدارجة بين الأهالي, إلى أن تقوم مقام اللغة الأم, وهذا هو السبيل لاستمالتهم إلينا وتمثلهم بنا وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين"(عثمان, د.ت, 18), واستخدمت فرنسا لتحقيق ذلك أساليب مختلفة ابتداء من إغلاق المعاهد الدينية واللغوية, وانتهاء باشتراط تعلم اللغة الفرنسية للحصول على فرصة عمل"تحويلا للغتهم إلى لغة الخبز أو

الحياة" و تجريد لغات الثقافات الأخرى من أهميتها، و إيغالا في كشف عجزها عن تلبية حاجيات حامليها، و من ثم ضرورة التخلي عنها واللحاق "بالبديل النموذجي الجاهز" القادر على تحقيق "وهم" تجاوز الهوة معه.

المعضلة أن خطورة تدمير اللغة لا تتوقف على كونها أهم عنصر في المركب الثقافي . حسب (جيرتز) . وإنما تتجاوزه إلى أكثر من ذلك, حيث أثبتت الدراسات وجود علاقة وثيقة بينها ونمط التفكير والإدراك والانتباه والذكاء والإبداع, باعتبار القيم المتضمنة في اللغة تشكل قاعدة تكوين الذات الفردية و الجماعية, ومن ثم اقترن تأثير اللغة الأجنبية ببث قيم وثقافة وتوجهات أصحابها, المرتبطة بتجاربهم وفلسفاتهم ومعتقداتهم... متجاوزا بذلك التصدع اللغوي إلى الصراع النفسي "مظاهر الانفصام والاغتراب العصابي" على شكل توهمات ذوي المراتب الحضارية الدنيا بأن مكانتهم تكون أعلى كلما تقمصوا صفات أصحاب الحضارة المهيمنة عليهم وتوحدوا معها, مثل كل العملاء والمهزومين "فالمغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعائره وزيه وعوائده وسائر أحواله" . كما سبق الإشارة إليه في توصيف العلامة ابن خلدون للأعراض المرضية للمهزومين . وقد أثبتت الدراسات المقارنة صحة ما ذهب إليه, وأن هشاشة العامل الحضاري تلعب الدور الوسيط بين وجود العناصر الثقافية الوافدة, والتخلف الثقافي في المغرب العربي . مثلا . كالمزج اللغوي في مقابل الكثافة الحضارية للدول (الاسكندينافية) أثناء تعرضهم للاستعمار الانجليزي.

وتكمن خطورة المزج اللغوي فيما يترتب عليه من تشويه اللغة الأم وتفقيرها, أو فيما يسمى "بالتخلف الآخر, أو التخلف الثقافي النفسي" باعتباره تخلف مركب من الثقافي . النفسي، الناتج عن انتشار وسيطرة ثقافة المجتمع الآخر الغالب(الذوادي, 1986 , 166) إضافة إلى ما يصاحب ذلك من تحقير للذات المغلوبة وتقدير للذات الغالبة, كتوجهات إدراكية نفسية أكثر تثبتا من السيطرة العسكرية, نظرا لتأثيرها على مستويات السلوك الاجتماعي الظاهري والضمني، اللذان ينتجان عن العمليات التفاعلية غير المتكافئة بين الثقافات، على النحو التالي:

1. ينتج السلوك الظاهري للثقافة المغلوبة عن عملية المزج اللغوي في الحديث أو الكتابة أو هما معا, و الاقتباسات في قواعد التفاعل و التحايا والتعبير عن الانفعال وطرق الاستجابة ومظاهر الملبس... وغيرها من صفات الآخر, التي تمكن من التوحد معه, وتمنح الوهم بالتحول إليه كآخر غير مهزوم, للحد من الشعور بالإخصاء الحضاري . النفسي, إلى حد يصل فيه التبرؤ من استحقاقات الهوية الحضارية حد سب اسم الجلالة, التي تؤشر على تحول الثقافة المفككة إلى ثقافة معادية لنفسها, وتخجل من مكوناتها الدينية واللغوية, وكأن المغاربين يحمّلون مسئولية إعاقة تحقيق تحولهم الكامل

نحو التوحد مع المعتدي الفرنسي بعقائده المسيحية ولغته الفرنسية لأناهم العليا "الدين الإسلامي واللغة العربية" خاصة أنهما شكلا أكثر القواعد الاجتماعية استعصاء على الاختراق (الكولنيالي).

2 . أما السلوك الضمني للثقافة المغلوبة، فينتج عن عملية التفاعل غير المتكافئة حضاريا وأيديولوجيا مع المستعمر, و يتخذ شكل تحقير ذاتي أو استلاب حضاري, يترتب عليه الشعور بالتهميش وعجز آليات الثقافة عن إشباع حاجيات حامليها, واضطرارها للتطفل على ثقافة غيرها, ومن ثم تغيير أساليب تحقيق الذات, أو التطلع إلى تحقيقها بمعايير مغايرة, ومن ثم أيضا سيادة ازدراء المُثل, والتندر على رموز الأمة وأبطالها, وغالبا ما يصاحب ذلك انتشار الشعوذة والإدمان والشجار ومظاهر اللامبالاة و اللامعيارية... وهذا ما آلت إليه حالة الهوية المغاربية . مثلا . حيث أخذ جزء من المجتمع بأسباب تحقير ذاته من خلال تحقير قيمه, حتى المقدس منها, مقارنة باعتداده بقيم الأجنبي, حتى الساذج منها والرديء, وبالتالي تحقير التراث, واعتبار أي جهد في ترشيده عبارة عن هدر للوقت والجهد. وذلك على عكس كثير من الأمم الأخرى التي نهضت حديثا، التي أحرزت تقدمها من خلال إعادة الاعتبار إلى لغاتها وثقافاتها القومية(نفسه,176.168). وقد نحت العلامة الذوادي لذلك مفهوم "الانحراف اللغوي" توصيفا لمظهر (الفرانكوـأراب الأنثوية) التي تمزج فيها اللغة العربية في المغرب العربي باللغة الفرنسية، ملاحظا أن هذه المظهر من "التخلف الآخر" أكثر انتشارا بين التونسيات منه بين التونسيين، نظرا لما تتعرض له المرأة من عوامل نفسية و اجتماعية مختلفة عن الرجل(الذوادي، 2010، 96)، ثم حدد مظاهر من انحرافات التخلف الآخر التي يعيشها المغاربيون و التي تزعزع أمنهم الثقافي بأمثلة حرمانهم من استيراد الهواتف النقالة و أجهزة الحاسوب المحمول بلوحات تشغيل معربة، و في كثير من الأحيان دون برمجة اللغة العربية، ما يضطرهم إلى حفظ التعابير اللازمة للتشغيل، و كتابة لغتهم بالحروف اللاتينية(نفسه، 204). حيث يضطرون لطرح أو تشويه هويتهم، عبر المرور بهوية أخرى لمخاطبة بعضهم البعض الكترونيا أو مباشرة!.

أما في إفريقيا جنوب الصحراء و أستراليا, فقد كان الحرمان أشد وأعمق, حيث تعامل المستعمر مع سكان هذه المناطق باعتبارهم كائنات أقل مرتبة من الإنسان، حسب ما عبر عنه أحد المستوطنين البيض و المستعمر (سي . لوكهارت) عام 1849م، في مقولته المشهورة: "لاشيء سوف يحول دون انقراض عنصر الـ (أبوروجينز) الذين شاءت الإرادة الإلهية أن تسمح لهم بالاحتفاظ بالأرض ريثما يجئ عنصر أفضل يحل محلهم".

إنه يعبر بذلك عن المبرر الأساسي للاستعمار الأوروبي، القائم على أن الأجناس "الهمج" أو غير الأوروبيين، ليسوا بشرا، و يمكن اعتبارهم غير موجودين، وأن الحيز الذي يشغلونه على

الأرض، هو في الحقيقة خالي من السكان، وجعلوا هذا الصلف العرقي قانونا إلهيا، و أضفوا عليه مبررا أخلاقيا يتذرعون به للسيطرة على الآخرين، و فلسفة مادية تعتبر الأرض مجرد شيء يحق للإنسان الحقيقي الذي اختارته العناية الإلهية، و قوانين التمييز الطبيعية و الاستئثار به، ليكون خليفة الله في الأرض، وذلك بالاستناد إلى القوة والتفوق التكنولوجي في البارود الذي كان يتميز به الأوربيون.

ولذلك عندما رست سفن البيض مثل (الكابتن فيليب) على شواطئ استراليا، لم يعتبروا ما قابلهم من أفراد قبيلة (أيورا) بشرا، و إنما هم مجرد شخوص مثل الأشباح التي لا تمثل شيئا في اعتقادهم، و إنما هم مجرد كائنات تلمع أجسادهم من الدهن اتقاء الحشرات و في أنوفهم أشياء مثل الزمام...(صالح، 13 ، 9، 2014) و وظف المستعمرون لذلك نظريات الغرس الثقافي أو التلاعب بالعقول، الذي تلعب فيه وسائل الإعلام دور التنشئة الاجتماعية، أو التعلم العرضي، إلى حد قارن فيه البعض بين قوته في التأثير في المجتمعات المعاصرة بقوة الدين في الأزمنة السابقة، فالإعلام يزرع في عقول المشاهدين منذ الصغر الصور الذهنية ، التي تستعمر عقولهم بإطارها المرجعي أو القيمي الموجه نحو استثمار الوقت في ترفيه مشاهد العنيفة بدل التحصيل...، ما ينتج شخصية استهلاكية، أنانية و عدوانية...، حيث يسود العنف حوالي 80% من البرامج الترفيهية للأطفال . حسب دراسة البيروفي (جوركي تابيا) (انظر ،الموسوعة الحرة ويكبيديا)، كما وظفوا لذلك نظريات التطور البيولوجية والانثروبولوجية وغيرها من الأفكار التي ارتبطت بتصنيفات عصر التنوير الهرمية, مثل تصنيفه لما هو عقلي وغير عقلي, معرفي وغير معرفي, وحين طور مصنفو ما بعد الحداثة ذلك إلى ما هو أوسع, وجدوا أن هناك صلة بين إقامة التصنيفات الهرمية للمعرفة، وإقامة التصنيفات الهرمية الاجتماعية، على اعتبار أن عقلانية التنوير هي عقلانية الرجل الأبيض, كمظهر من مظاهر اضطهاد المرأة و الآخرون من غير البيض على حد سواء(الخوري, 1985 ,38) وذلك ليبرروا لأنفسهم ممارساتهم الشنيعة من جهة, وليوغلوا في تبخيس ليس فقط الخصائص المكتسبة إلى حد ما للآخرين, مثل الثقافة والسمات النفسية, من جهة أخرى، وإنما أيضا الخصائص الجبلية (الفيزيقية) مثل لون البشرة الأسود، ليشعر الإفريقي بالدونية والشذوذ عن الناس الآخرين... فينشأ متمردا على خصائصه, وهكذا, تم استغلال ذلك رأسماليا بتركيب سلع تفتيح البشرة, وترطيب الشعر "كنوع من التدخل بين المرء ورغباته" لاستمرار التحكم فيه من خلال إعادة تحديد وتوجيه هذه الرغبة نحو منتجات استهلاكية جديدة, واستنزاف فائضة الإنتاجي والعقلي, "كمتلازمة للشعور بالدونية ونبذ الذات"، حيث لا مخيال لدى هؤلاء إلا ما فرضته الهمجية الرأسمالية بدعايتها

الإعلانية، و تقبلوه بوهم يا نصيب النجاح السهل، كبعد من أبعاد هدر الذات بحقوقها و مصائرها، و التباهي البويهمي بتخلفهم، بما يشبه ما يسميه (أفلاطون) "تلذذ الأجرب بالحكاك"، كإفرازات للعقل البدائي، الذي يمنح صاحبه "الوهم" بأنه متحكم في الكون، و بناء على ذلك لا يشعر بأية ضرورة لتنمية قدراته، و من ثم، تقتصر مساعيه إلى محاربة الجهل، بمجرد استخدام جهل آخر ممنهج، لكنه فقط يحظى بالعناية الرسمية، يكتفي فيه الطالب العربي . مثلا . باستهلاك مقولات جاهزة "أن العرب منحوا أوروبا العقل التنويري، من غير أن يعرف حتى معنى التنوير الذي يزعم انه علمه لغيره!.

الخلاصة: أن المستعمر مدان بقضايا أعمق بكثير من إمكانية تقديرها ماديا, حيث أنتج عاهات ثقافية ونفسية, مازالت تسيطر على فاعلية أمم بكاملها وتطيح بمحاولاتها في تنظيم أفعالها التنموية والإبداعية عموما, وإدراكها لكيانها, ووضع معايير لتعاملها مع بعضها, وتجاوز المرجعية الاستعمارية في تجزئتها, وممارسة السخرة الفردية والجماعية, بما فيها سخرة الدولة والسخرية من سيادتها باستمرار, إضافة إلى جرائمه في تدمير التنوع الثقافي الحيوي لكثير من كنوز الخبرات التي راكمها فريق من البشر عبر مسيرتهم التاريخية, أثناء محاولات التكيف البيئي والاجتماعي, و المتضمنة في لغتهم التي تعرضت للتدمير أو التشويه, مما حرم البشرية من الاستفادة من خلاصة تجاربها. رغم التسليم أن كل لغة تحمل رؤى أو تصورات أو فلسفات مختلفة للوجود الإنساني والفيزيقي, باختلاف الزوايا التي تنظر منها للكون, أو المعطى الغائي الذي تنطلق منه, والقيمة الأخلاقية التي تستهدفها, وبقدر ما تتاح الفرص لتنمية الرؤى المتعددة بقدر ما يكون تكاملها ثريا وخلاقا.

التوصية: بما أن المشكلة ثقافية بامتياز، فلعل الرهان الثقافي كأهم وسيلة لمواجهتها، يكمن في التوصية بوضع خطة لمشروع حضاري، ينهض ببناء مؤسسات ثقافية وطنية، لديها الكفاءة و القدرة على حماية الشخصية القومية، و تأهيلها للصمود أمام الاختراقات و الترميزات المختلفة، وذلك عبر تطوير النظم التعليمية و الإعلامية... كمؤسسات وسيلية لها أهداف محددة قابلة للقياس الإجرائي، وليست مجرد ديكورات فارغة من المضمون، تقلد بتشوهات شكلية مؤسسات المستعمر الذي يسخرها لإعادة إنتاج الجهل الرسمي المعيق لإمكانية البحث الواعي بآلية التسخير ذاتها؛ نظرا لغربة معارفها عن الواقع الحضاري والثقافي لحاجات مجتمعاتها الملحة، و التحرر من استمرارها مجرد آلة ثقافية مصنوعة لتلبية متطلبات الإنماء في بلدان إنتاجها بالدرجة الأولى، و لا قيمة لها إلا في دورة الحياة المرتبطة بالجهات المصدرة لها، ما كرس العجز في المجتمعات الثالثية عن إنتاج التنمية المعرفية الجادة في توصيف و تحليل معوقات المجتمع في مواجهة نماذج اختراق الهوية الجامعة، و تسخير

الدولة لخدمة مصالح الاستعمار عبر وجوه وطنية، و استمرار إعاقة الإحياء الثقافي الفلسفي و العلمي و الفني و الترويحي المتنور و الرشيد، النابع من العبقرية الثقافية المتفردة المتراكمة عبر التاريخ. و لا يتأتى ذلك التطوير إلا عبر تأسيس مراكز بحثية جادة، قادرة على وضع مفاهيم و تصورات تساعد على تشكيل نخب لها وعي و أهداف مشتركة، قادرة على تجاوز التجزئة القبلية و الطائفية... باتجاه "هوية عاصمة أو شبه محصنة" بحجم دائرة الخصائص الثقافية و الجغرافية و التاريخية القادرة على لملمة "الهويات القاتلة المتصارعة" لتوفير فائض العقل و الجهد الذي تستنزفه دوافعها من توترات، لإمكانية استغلاله لصالح الهوية المشتركة المدركة الحائزة على التقدير الجمعي، القادرة على مواجهة النماذج العدمية التجزيئية المعيقة للتنمية.

المراجع:

1. بوردو جورج, الدولة, ترجمة, سليم حداد, المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر, بيروت, 2002.

2 . الجيلاني الشيخ أحمد, الهوية والانتماء في المجتمع الموريتاني, دراسة انثروبولوجية, دار بن تاشفين, العين, 2008.

3 . حجازي مصطفى, الإنسان المهدور, دراسة نفسية اجتماعية, المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء, 2005 .

4 . الخوري فؤاد, نشأة الانثروبولوجيا ولاجتماع, وتطورهما,الفكر العربي,ع,37 ,1985

5 . الذوادي محمود, التخلف الثقافي النفسي, كمفهوم بحث في مجتمعات الوطن العربي والعالم الثالث, نحو علم اجتماع عربي, مركز دراسات الوحدة العربية, بيروت, 1989.

6. الذوادي محمود، المقدمة في علم الاجتماع الثقافي برؤية عربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، 2010.

7 . رمزي نبيل وأبو طاحونة عدلي, التنمية كيف ولماذا؟, دار الفكر الجامعي, الإسكندرية, 1992.

8. كروبر آدم، الثقافة، التفسير الانثروبولوجي، عالم المعرفة، الكويت، 2008.

9. منصور خيري، الهوية بين الفائض و النقصان، القدس العربي، 5، 9، 2014.

10. منصور خيري، حرب المصطلحات، القدس العربي، 8، 8، 2014.

11. صالح الطيب، مخلوقات دمرت الحلم الجميل، القدس العربي، 13، 9، 2104.

12 . سعدي عثمان, البربر الامازيغ, عرب عاربة, دار الملتقى للطباعة والنشر, بيروت, 1998.

13. سلامة غسان وآخرون, الأمة والاندماج في الوطن العربي, مركز دراسات الوحدة العربية,بيروت, 1989.
14 . علي نبيل، الثقافة العربية و عصر المعلومات، س سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2001.
15 . عبد المعطي عبد الباسط, في التنمية البديلة, دراسات وقضايا, دار المعرفة الجامعية, الإسكندرية, 1990.
16. غامري محمد حسن, مقدمة في الانثروبولوجيا العامة, المكتب العربي الحديث, الإسكندرية، 1989.
17 . غيث عاطف ومحمد علي, دراسات في التنمية والتخطيط,الاجتماعي, دار النهضة العربية، بيروت, 1986.
18. فخرو علي محمد, تحديث التعليم وتطوير المناهج, ندوة, مركز الإمارات للدراسات الإستراتيجية، 2008.
19. فروم أريك, ما وراء الأوهام, ترجمة, صالح حاتم, دار الحوار للنشر والتوزيع, اللاذقية, 2002.
20. فيرونيك ناحوم جراب, انثروبولوجيا العنف المفرط,جريمة التدنيس, ترجمة, أسعد حليم, المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية, 2002.
21. وليم و.لامبرت, وولاس إ.لامبرت، علم النفس الاجتماعي, ترجمة سلوى الملاح, دار الشروق, القاهرة, 1989.